الاختبارات التاريخيّة للاجتهاد عند الشيعة الإماميّة
ـقراءة تحليليّة مقارنةـ

د. الشيخ زكي الميلاد[1]

خلاصة:

مرّ الاجتهاد الفكريّ الشيعيّ الإماميّ بأربعة اختبارات فكريّة في محطّات تاريخيّة مختلفة، حيث ظهر الاختبار الأوّل في القرن الهجريّ الأوّل مع شيوع النزعة العقليّة في البيئة الفكريّة الإسلاميّة، وما دار من نزاع في هذه المحطّة التاريخيّة بين الأشاعرة والمعتزلة؛ أدّى إلى اضمحلال مذهب الاعتزال الذي تميّز بنزعته العقليّة، ولكنّ الاجتهاد الفكريّ الإماميّ بقي على حيويّته ولم يتأثّر بهذا النزاع.

وفي الاختبار الثاني في القرن الهجريّ الرابع، لم يتأثّر الاجتهاد الفكريّ الشيعيّ بما حدث عند نظيره في الساحة السنّيّة من إعلان إغلاق باب الاجتهاد.

وفي اختبار ثالث في القرن السادس الهجريّ لم يتأثّر الاجتهاد الفكريّ الشيعيّ بما بات يؤرَّخ له في الدراسات الفكريّة والتاريخيّة بنهاية الفلسفة عند المسلمين، بفعل انتصار الغزاليّ صاحب «تهافت الفلاسفة»، وهزيمة ابن رشد صاحب «تهافت التهافت»،

(١) باحث في الفكر الإسلاميّ، ورئيس تحرير مجلة الكلمة، من السعوديّة.

أو تقدّم الغزالي وتراجع ابن رشد، الأمر الذي يعني توقّف الحركة العقليّة في المجال الإسلاميّ أو تعثّرها أو تراجعها.

وفي اختبار رابع ظهرت في مطلع القرن الحادي عشر الهجريّ، في ساحة المسلمين الشيعة، نزعة فكريّة ودينيّة، عُرِفَت بـ «**النزعة الأخباريّة**»، وأظهرت هذه النزعة ردّ فعلٍ في مقابل تطوّر الفكر العلميّ عند المسلمين الشيعة في مجال أصول الفقه، رافضة هذا المنحى، ومعارضة مسلكه العقليّ وموقفه تجاه العقل. وقد تمكّن الفكر الإسلاميّ الشيعيّ، في هذا الاختبار، من التغلّب على النزعة الأخباريّة التي ظهرت في داخله، ومن الانتصار النهائيّ عليها، وتحويل وضعيّتها من التأثير في المركز إلى التأثير في الهامش. وهذا هو حالها اليوم في البيئات والمجتمعات التي ظهرت فيها.

مصطلحات مفتاحيّة:

الاختبارات التاريخيّة، الاجتهاد الإماميّ، الاجتهاد السنّي، المعتزلة، الشاعرة، الفلسفة، النزعة العقليّة، سدّ باب الاجتهاد، النزعة الأخباريّة، النزعة الأصوليّة...

مقدّمة:

شهد الفكر الإسلاميّ الشيعيّ، ما بين العصرين القديم والوسيط، اختبارات فكريّة كانت مؤثّرة وخطيرة للغاية، خرج منها سالماً ومتفوّقاً، محافظاً على توازنه وتماسكه الفكريّ والروحيّ، ولم يتقهقر أو يتراجع أو ينتكس، في حين أحدثت انسداد وانغلاقاً في الاجتهاد السنّي، امتدّ أثره إلى واقعنا المعاصر؛ بحكم أنّ أغلب الحكومات والدول التي حكمت المسلمين قديماً أو تحكمهم حاليّاً تستند إلى الفقه السنّيّ. وقد تأثّر الواقع الشيعي من هذا الأمر على المستوى الاجتماعي والسياسيّ، ولكنّه بقي على مستوى الاجتهاد الفقهي والفكريّ منفتحاً لا تواجهه أزمة الانسداد والإغلاق. ويمكن رصد أربعة اختبارات فكريّة في محطّات تاريخيّة مختلفة مرّ بها الفكر الاجتهاديّ الإسلاميّ عند الشيعة الإماميّة، وهو ما سوف نحلّله ونقارنه مع مثيله من الاجتهاد السنّي في طيّات هذه المقالة.

أولاً: الاختبار الأوّل:

ظهر مذهب الاعتزال في القرن الهجريّ الثاني في ساحة المسلمين؛ بوصفه أوّل حركة عقليّة تكوّنت في تاريخ الإسلام الفكريّ، حيث عدّه البعض من أخصب المدارس العقليّة في الإسلام[١]، ومثّل روّاده ما يسمّى بـ «العقلانيّة»، ومنه بدأ الإبداع الفلسفيّ في الإسلام[٢].

وقد تمسّك أصحاب هذا المذهب بدور العقل في فهم الدين إلى أبعد حدود، في محاولة لاستكشاف دور العقل في المجال الإسلاميّ.

والمفارقة أنّ هذا المذهب جُوبِهَ في المجال الإسلاميّ السنّيّ بمعارضة شديدة وعنيفة، حيث تعرّض إلى الحصار والتضييق؛ ما أدّى إلى تراجعه وتقهقره مع مرور الوقت، ثمّ

(١) انظر: مدكور، إبراهيم: في الفلسفة الإسلاميّة.. منهج وتطبيق، القاهرة، سميركو للطباعة، لا ت.، ج٢، ص٣٦.
(٢) انظر: النشار، علي سامي: نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام، ط٩، القاهرة، دار المعارف، ج١، ص٨.

اضمحلاله وتلاشيه، فلم يبق منه اليوم إلا مجرّد بقايا أثر لا تكاد تُذكَر.

وبخلاف هذا الموقف تماماً، تعامل الفكر الإسلاميّ الشيعيّ مع مذهب الاعتزال بإيجابيّة وتفاعل وانفتاح، ولم يسجّل التاريخ على الفكر الإسلاميّ الشيعيّ أنّه كان طرفاً في هذه المجابهة والمواجهة والإقصاء والإلغاء الذي تعرّض له المعتزلة.

وهذا الموقف يُسجَّل تاريخيّاً للفكر الإسلاميّ الشيعيّ، ويكشف من وجه آخر عن أحد صور العلاقة بين الفكر الإسلاميّ الشيعيّ وحركة العقل والعقلانيّة في المجال الإسلاميّ.

ومع تراجع المعتزلة وتقدّم خصومهم الذي دام واستمرّ منذ ذلك الوقت إلى اليوم، تغيّرت صورة الموقف تجاه العقل والعقلانيّة في ساحة الفكر الإسلاميّ، وأصبحت شبهة الاعتزال والمعتزلة تلاحق كلّ مَنْ يدعو إلى العقل والعقلانيّة، من دون فرق أو تمييز بين من يقترب من المعتزلة ومن يبتعد عنهم، وبين من يتّفق معهم ومن يختلف، وبات في نظر البعض أنّ «كلّ من نهج النهج العقليّ في الدين في العصر الحاضر، إنّما هو تابع من أتباع المعتزلة»[1].

ويرى أحد الباحثين أنّ من صور تأثير تراجع المعتزلة في تغيّر الموقف تجاه العقل، أنّهم كانوا «هم السبب فيما لجأ إليه أهل السنّة من رفض أحاديث العقل لتأثّرهم بالفلسفة»[2]، حيث قام حول هذه الأحاديث بالذات «جدل كبير بين علماء المسلمين، فمنهم من رفضها رفضاً قاطعاً، وادّعى أنّه لم يصحّ حديث واحد في العقل، ومنهم من قَبِلَ هذه الأحاديث، أو قَبِلَ قسماً منها مع التضعيف؛ وذلك ربّما يرجع إلى تصادم الآراء بين المعتزلة الذين غالوا في تقدير العقل، وبين أحمد بن حنبل وأهل الحديث ممّن وقفوا في وجه هذه المغالاة، والتزموا بالنصّ»[3].

(١) محمود، عبد الحليم: الإسلام والعقل، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٨م، ص٤٠.
(٢) الجوزو، محمد علي: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنّة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠م، ص١٣٩.
(٣) م.ن، ص١٣٥.

وللبرهنة على هذا الأمر، أشار الباحث إلى ما تشكّل من موقف تجريحيّ تجاه أوّل كتابين في فضل العقل: الكتاب الأوّل من تصنيف داود بن المحبر (ت: ٢٠٦هـ/ ٨٢١م)، والكتاب الثاني من تأليف ابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ/ ٨٩٤م)؛ إذ جرى تكذيب الأحاديث الواردة في هذين الكتابين حول فضل العقل.

ومن بين الأقوال الواردة في هذا الشأن، توقف الباحث عند قول يحيى بن معين وموقفه من ابن المحبر؛ إذ قال عنه: «صحب قوماً من المعتزلة، فأفسدوه»، فوجد فيه إشارة إلى نقطة مهمّة ربّما تكون هي السبب الرئيس لرفض أحاديثه كلّها، وهي علاقته بالمعتزلة الذين بالغوا في تقدير العقل[١].

في حين يرى باحثون آخرون أنّ تغلّب خصوم المعتزلة أدّى إلى تشكّل تصوّر مريب عن العقلانيّة، وإلى خصومة مفتعلة بين الدين والعقل، فـ «رؤية الأشاعرة بشأن شكليّة القيم وتجذّرها في عقول العامّة، وتغلّبها في المنهجيّة الرسميّة، أدّت إلى ضمور دور العقل الإسلاميّ في إغناء التجارب الإنسانيّة»[٢]، وأنّه «قد أصبح واضحاً اليوم، أنّ المعتزلة فتحوا أبواباً شتّى أمام الفكر الإسلاميّ، وأفسحوا السبيل للدراسات العلميّة والفلسفيّة، وفي محاربتهم واختفائهم ما أساء إلى الإسلام، وعوّق حركة التقدّم والتطوّر»[٣].

والأمر الأكيد أنّ المعتزلة لو كانت هي التي بقيت وتغلّبت؛ لكانت صورة الموقف تجاه فكرة العقلانيّة عند المسلمين مختلفة عمّا هي عليه اليوم، ومن هذه الجهة يرى بعضهم أنّه لو سادت تعاليم المعتزلة في هذين الأمرين ـأي سلطان العقل وحرّيّة الإرادة بين المسلمينـ في عهد المعتزلة إلى اليوم، لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحالي[٤].

(١) انظر: الجوزو: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنّة، م.س، ص١٣٨.
(٢) أحمد، محمد شريف: تجديد الموقف الإسلاميّ في الفقه والفكر والسياسة، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٤م، ص١٩١.
(٣) مدكور، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، م.س، ج٢، ص٤٥.
(٤) انظر: أمين، أحمد: ضحى الإسلام، ط١٠، بيروت، دار الكتاب العربّي، لا ت، ج٣، ص٧٠.

ثانياً: الاختبار الثاني:

وجد الفكر الإسلاميّ السنّيّ نفسه مضطراً، في القرن الهجريّ الرابع، إلى أنْ يعلن ـ ولأوّل مرّة في تاريخ الثقافة الإسلاميّة، وفي خطوة غير مسبوقة وغير متوقّعة ـ عن إغلاق باب الاجتهاد.

كانت هذه أخطر أزمة فكريّة أصابت العقل الإسلاميّ في الصميم، وتأثّر بها الفكر الإسلامّي في جميع مراحله الزمنيّة والتاريخيّة، وأعاقت تطوّره وتقدّمه في المجالات كافّة، وشلّت قدرته الاجتهاديّة في مواكبة تطوّرات الزمن، وتحوّلات العالم، وتجدّدات الحياة، وفي التواصل والتفاعل مع حركة العلوم والمعارف الإنسانيّة ونهضتها.

وتكمن خطورة هذه الأزمة في أنّها حصلت منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الهجريّ الرابع، وبقيت هذه الأزمة واستمرّت بكلّ تداعياتها وتراكماتها إلى الواقع المعاصر، واعترف الجميع بحصولها؛ فقهاء، كلاميّون، ومؤرّخون، وكشفوا عن خطورتها وفداحتها، وعرّفوا بالأرضيّات والسياقات التي تأثّرت بها، وكيف أجبرت هذه الأزمة على اتّخاذ هذه الخطوة بالإعلان صراحة عن إغلاق باب الاجتهاد، الباب الذي ما كان ينبغي أن يغلق أبداً، بل يظلّ مفتوحاً.

وفي سياق البحث عن أسباب هذا الإغلاق، ورد مجموعة من التفسيرات؛ فقيل على لسان العلماء والفقهاء والمؤرّخين إنّ إغلاق باب الاجتهاد جاء لوضع حدّ لحالة الفوضى والاضطراب التي بلغت في المجال الدينيّ والفقهيّ درجة حرجة وخطيرة، ونقل الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد»، أنّ بعضهم صار يحلّل تارة ويحرّم تارة في القضيّة الواحدة.

وقيل إنّ هذا الإغلاق جاء لإيقاف تدخّل الحكّام وأهل السياسة في أمور الشريعة والدين؛ وذلك بعد أن تمادى هؤلاء في تدخّلاتهم، وسوّغوا لأنفسهم هذا العمل من دون وجه حقّ، وتعمّدوا إثارة النزاع والشقاق والانقسام بين العلماء والمذاهب والجماعات، بتغليب طرف على طرف آخر، وترجيح رأي في مقابل رأي آخر، وتقريب جماعة على

حساب جماعة أخرى، وهكذا. وأوضح شاهد على ذلك قضيّة خَلْق القرآن التي وُصِفَت في تاريخ الثقافة الإسلاميّة بالمحنة، في إشارة إلى خطورتها، وكيف أنّها أحدثت شرخاً وانقساماً في الأمّة ما زال إلى اليوم حاضراً في ذاكرة الثقافة الإسلاميّة.

وقيل إنّ هذا الإغلاق حصل في ظرف شاع فيه التعصّب المذهبّي، الذي كرّس الخلافات، وأورث النزاعات الفقهيّة والكلاميّة، وكانت له امتدادات وتداعيات ثقافيّة واجتماعيّة في مجتمعات المسلمين، وقد ضاقت الأمّة ذرعاً من هذا التعصّب الذي رسّخ حالة الجمود والتقليد، وعطّل حالة الإبداع والابتكار، وأخذ البعض يتحدّث عن حالة من الانحطاط الفكريّ والثقافيّ التي أصابت الأمّة.

هذه الأزمة والوضعيّات التي تولّدت منها، وما ترتّب عليها، كانت لها تداعيات مباشرة على فكرة العقلانيّة، فقد أسهمت في تعطيل نموّ هذه الفكرة وتطوّرها في ساحة المسلمين، وأدّت إلى ضمورها وتراجعها، وحجبت الرؤية عنها، وقلبت طريقة النظر إليها، وغلّبت موقف الخشية منها.

ولو أنّ باب الاجتهاد بقي مفتوحاً؛ لكانت صورة الموقف تجاه العقل والعقلانيّة في ساحة الفكر الإسلاميّ مختلفة عمّا هي عليه اليوم.

وبخلاف هذا الموقف تماماً، ما حصل في المجال الإسلاميّ الشيعيّ الذي لم يتعرّض إلى الأزمة الفكريّة والسياسيّة التي تعرّض إليها الفكر الإسلاميّ السنّيّ، ولم يجد نفسه في كلّ الأزمنة التي مرّت عليه في موقف الاضطرار؛ لعدم إغلاقه باب الاجتهاد، الذي بقي وما زال مفتوحاً، وبفضله أصبح الفكر الإسلاميّ الشيعيّ يتّسم بالفاعليّة والديناميّة، وفي حالة من اليقظة الفكريّة والاجتهاديّة على طول الخطّ.

ومن وجه آخر، يُعدّ الاجتهاد أحد أهمّ المفاهيم التي ابتكرتها المنظومة الإسلاميّة، وانفردت بها الحضارة الإسلاميّة؛ فقد نشأ وتطوّر في الإطار الزمنيّ والتاريخيّ لهذه الحضارة، وترك تأثيراً مهمّاً في منظومة الثقافة الإسلاميّة، بكلّ مكوّناتها وتشكّلاتها، وحركاتها ومساراتها. هذا المفهوم الذي يحتاج اليوم إلى حفريّات معرفيّة جديدة،

لاستظهار مدلولاته، والكشف عن مكوّناته العميقة والمتجدّدة والفاعلة، وبوصفه المفهوم الذي يقارب مفهوم الحداثة.

وبعد التحقيق، وجدت أنّ الاجتهاد بضرب من توسيع المفهوم إلى الاجتهاد العلميّ أو المعرفيّ أو روح الاجتهاد، يوازي من حيث الأهمّيّة مفهوم الحداثة عند الغرب؛ لأنّه يتمثّل العناصر الأساسيّة المكوّنة لبنية مفهوم الحداثة؛ وهي عناصر العلم، والعقل، والزمن[1].

ثالثاً: الاختبار الثالث:

حصل في القرن السادس الهجريّ (الثاني عشر الميلاديّ) ما بات يؤرَّخ له في الدراسات الفكريّة والتاريخيّة بنهاية الفلسفة عند المسلمين، بفعل انتصار الغزاليّ (٤٥٠ـ٥٠٥هـ/ ١٠٥٦ـ١١١١م) صاحب «تهافت الفلاسفة»، وهزيمة ابن رشد (٥٢٠ـ٥٩٥هـ / ١١٢٦ـ١١٩٨م) صاحب «تهافت التهافت»، أو تقدّم الغزالي وتراجع ابن رشد، الأمر الذي يعني توقّف الحركة العقليّة في المجال الإسلاميّ أو تعثّرها أو تراجعها.

وكانت لهذه الأزمة ارتدادات شديدة على مسارات الفكر الإسلاميّ في جميع مراحله وأطواره، ظلّت حاضرة ومؤثّرة على طول الخطّ، حيث توقّف عندها المؤرّخون في دراساتهم التاريخيّة، وذكرها المفكّرون في كتاباتهم الفكريّة، ورجع إليها المتكلّمون في أبحاثهم الكلاميّة، وما زالت هذه الأزمة تحتفظ بهذا الارتداد إلى اليوم، وكأنّها حصلت بالأمس القريب، لا في القرن السادس الهجريّ (الثاني عشر الميلاديّ).

وقد تشكّل انطباع عامّ على أثر هذه الأزمة مفاده أنّ الغزالي سدَّد ضربة موجعة لفكرة

(١) هذه الفكرة طرحتها سنة ٢٠٠٠م في دراسة نشرتها بعنوان: «الفكر الإسلاميّ المعاصر بين الحداثة والاجتهاد»، ويمكن العودة إليها في كتابين نشرتهما؛ الأوّل: كتاب «من التراث إلى الاجتهاد.. الفكر الإسلاميّ وقضايا الإصلاح والتجديد» الصادر سنة ٢٠٠٤م، وكتاب «الإسلام والحداثة.. من صدمة الحداثة إلى البحث عن حداثة إسلاميّة» الصادر سنة ٢٠١٠م.

العقلانيّة في ساحة الفكر الإسلاميّ، حيث جمّدت فاعليّة هذه الفكرة، وشلّت قدرتها، وأعاقت نموّها، وأطفأت شعلتها، وأدخلتها في أزمة طويلة امتدّت إلى واقعنا المعاصر.

وتكرّر هذا الانطباع وتواتر كثيراً في كتابات تاريخيّة وفكريّة وكلاميّة، وأشار إليه عديد من الباحثين والمؤرّخين العرب والمسلمين، وتعداهم إلى عدد من الأوروبيّين؛ من الباحثين والمستشرقين، الذين كانوا على قناعة راسخة به. فرأى بعضهم أنّ الغزالي ختم على العقل الإسلاميّ نهائيّاً ومن دون رجعة، إلا بمراجعة كاملة من مسلمين علماء مخلصين للدين والإنسانيّة، يكون لديهم العلم والشجاعة لمواجهة تراث شموليّ خاطئ[١].

وحسب هذا الانطباع، يكون الغزاليّ بفلسفته الصوفيّة قد تغلّب في ساحة الفكر الإسلاميّ على ابن رشد وفلسفته العقليّة، ما كان إيذاناً في نظر بعضهم بحصول الانتصار النهائيّ لأهل الجمود والتقليد، وبسببه بدأ النوم العميق الذي استغرقت فيه البلاد الإسلاميّة طيلة سبعة قرون، والذي ما زال باسطاً ذراعيه على كثير من هذه البلاد حتى يومنا هذا[٢].

في حين يرى بعضهم الآخر أنّ الغزاليّ قد كرّس وضعيّة العقل المستقيل، الذي يتّسم بفقدان الثقة في العقل، في وقت انتقلت فيه فلسفة ابن رشد إلى أوروبا، وأحدثت هناك تيّاراً فكريّاً ثوريّاً، حرَّك عجلة التقدّم بالصورة التي مكّنت العلم فيما بعد من أن يقوم بدوره التاريخيّ في النهضة الأوروبيّة الحديثة[٣].

فإذا كانت هذه الفلسفة قد توقّفت أو تراجعت أو أصيبت بنكسة وأزمة، فإنّ من الثابت أنّها قد تجدّدت واستمرّت في المجال الإسلاميّ الشيعيّ، وتحديداً مع مدرسة أصفهان الفلسفيّة، ومع فلسفة صدر الدين الشيرازيّ (٩٧٩ـ١٠٥٠ هـ/ ١٥٧١ـ ١٦٤٠م) صاحب فلسفة الحكمة المتعالية، بشكل أخصّ.

(١) انظر: العشماوي، محمد سعيد: العقل في الإسلام، بيروت، مؤسّسة الانتشار العربيّ، ٢٠٠٤م، ص٧٢.
(٢) انظر: قاسم، محمود: الإسلام بين أمس وغده، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠٠٩م، ص٥٥.
(٣) انظر: الجابري، محمد عابد: تكوين العقل العربيّ، الدار البيضاء، المركز الثقافيّ العربيّ، ٢٠٠٠م، ص٣٣٦ـ٣٣٩.

ويعدّ المستشرق والفيلسوف الفرنسيّ الشهير هنري كوربان (١٩٠٣ـ١٩٧٨م) أحد أكثر الغربيّين دفاعاً عن هذا الرأي، حيث بذل جهداً واضحاً ومتماسكاً في البرهنة عليه، وحسب رأيه فإنّ من اللغو الباطل القول إنّ الفلسفة بعد الغزالي قُيِّض لها أن تنتقل إلى غرب العالم الإسلاميّ، وإنّ من الخطأ ـأيضاًـ الزعم أنّ الفلسفة لم تقم لها قائمة بعد تلك الضربة التي وجّهها لها الغزالي؛ بل إنّ الفلسفة قد بقيت مزدهرة في الشرق[١]. ويرى كوربان أنّ أعمال ابن رشد فيلسوف قرطبة، قد أعطت بترجمتها اللاتينيّة ما يسمّى في الغرب بـ«الرشديّة» التي طغت على السينويّة اللاتينيّة، وأمّا في الشرق، فقد مرّت الرشديّة مروراً غير ملحوظ، ولم تُعرَف فيه مدرسة ابن رشد، ولم يُنظَر إلى نقد الغزاليّ للفلسفة على أنّه وضع حدّاً للسنّة التي ابتدأها ابن سينا، ولا حتى فهمت انتقادات الغزاليّ على حقيقتها التي غالباً ما فسّرها مؤرّخو الفلسفة الغربيّون، على أنّها كانت بمنزلة ضربة قاضية للفلسفة. وقد غاب عن بال هؤلاء كذلك، ما كان يحدث في الشرق، حيث مرَّت مؤلّفات ابن رشد دون أثر ملحوظ، فلا دار في خلد نصير الدين الطوسي (٥٩٧ـ٦٧٢هـ/ ١٢٠١ـ١٢٧٤م)، أو الميرداماد (٩٦٩ـ١٠٤١هـ)، أو الملا هادي السبزواريّ (١٢١٢ـ١٢٨٩هـ/ ١٧٩٧ـ١٨٧٣م) ما تُعلِّقه تواريخ الفلسفة عند الغربيّين من أهمّيّة ومعنى، على ذلك النقاش الجدليّ الذي دار بين الغزاليّ وابن رشد؛ بل إنّنا إذا أوضحنا لهم ذلك لأثار الأمر دهشتهم، كما يثير دهشة خلفهم اليوم[٢].

وما يريد أن يصل إليه كوربان هو أنّ مدرسة أصفهان الفلسفيّة في القرن السادس عشر الميلاديّ، مثّلت ظاهرة لا نظير لها في مكان آخر من العالم الإسلاميّ؛ إذ كان يرى أنّ باب الفلسفة قد أُغلِقَ منذ أيّام ابن رشد، واعتاد المؤرّخون أن يروا في الرشديّة الكلمة الأخيرة في الفلسفة العربيّة، في حين تقدّم لنا الفلسفة الإسلاميّة في الشرق ـوعوضاً عن ذلكـ معيناً لا ينتهي من المناهل والثروات الفكريّة[٣].

(١) انظر: كوربان، هنري: تاريخ الفلسفة الإسلاميّة، ترجمة: نصير مروة؛ حسن قبيسي، بيروت، عويدات للنشر، ٢٠٠٤م، ص٢٩١.

(٢) انظر: م.ن، ص٤٣ـ٣٧٠.

(٣) انظر: م.ن، ص٩٢ـ٣٣٢.

وأشار إلى هذا الرأي أيضاً بعض الباحثين، خلال حديثه عن صدر الدين الشيرازيّ الذي قال عنه إنّه آخر المؤلّفين الموسوعيّين في الإسلام، معتبراً أنّ إنتاجه «الضخم نقض بليغ للرأي الذي أخذ به عديدون من مؤرّخي الفلسفة الإسلاميّة في العصر الوسيط؛ وهو أنّ الغزاليّ تمكّن في نهاية القرن الحادي عشر من توجيه ضربة قاصمة إلى الفلسفة،لم تستطع بعدها النهوض»[1].

أمّا عند الإيرانيّين ـباحثين، ومفكّرين، ومؤرّخينـ فإنّ هذا الرأي من المسلّمات التي لا تقبل الجدل عندهم، ولا يمكن دحضه بأيّ شكل من الأشكال، وقد ظلّوا مدافعين عن هذا الرأي على طول الخطّ. الأمر الذي يعني أنّ الحركة العقليّة ظلّت فاعلة ومستمرّة في ساحة الفكر الإسلاميّ الشيعيّ، ولم تنقطع أو تتوقّف، وفي تطوّر آخر انتقلت هذه الحركة العقليّة إلى ساحة أصول الفقه، الحقل الذي أصبح الأكثر تعبيراً عن موقف الفكر الشيعيّ تجاه العقل والعقلانيّة.

وعلى من يريد التعرّف على النزعة العقلانيّة عند الشيعة الإماميّة، الذهاب إلى أصول الفقه، فهو الحقل الذي برع فيه علماء الإماميّة، وتجلّت فيه عبقريّتهم الفكريّة والأصوليّة، وفي ساحته خاضوا معاركهم النقديّة والحجاجيّة؛ انتصاراً للعقل والموقف العقليّ.

وقد كشف أصول الفقه، عن نزعة عقليّة فاعلة ومؤثّرة عند المدرسة الإماميّة، بشكل يمكن معه القول إنّ الشيعة الإماميّة أصحاب نزعة عقليّة حقيقيّة.

رابعاً: الاختبار الرابع:

ظهرت في مطلع القرن الحادي عشر الهجريّ، في ساحة المسلمين الشيعة، نزعة فكريّة ودينيّة، عُرِفَت بـ «النزعة الأخباريّة»، ارتبطت في وقتها بالمحدِّث محمد أمين الأستراباديّ (ت: ١٠٣٣هـ)، الذي كشف عنها وعرَّف بها، وروَّج لها في كتابه «الفوائد المدنيّة».

(١) فخري، ماجد: تاريخ الفلسفة الإسلاميّة، ترجمة: كمال اليازجيّ، بيروت، دار المشرق، ٢٠٠٠م، ص٤٧٦.

وكان لهذه النزعة تأثير واسع في زمنها على طبقة مهمّة من رجال الدين الشيعة، حيث امتدّت إلى أبرز الحواضر والمراكز العلميّة والدينيّة عند المسلمين الشيعة، وفي طليعتها مدينتا النجف وكربلاء العراقيّتان، ومدينة أصفهان الإيرانيّة، ووصلت إلى البحرين على ساحل الخليج.

وأحدثت هذه النزعة انقساماً حادّاً، هو الأشدّ من نوعه في ما حصل بين علماء الدين الشيعة في الفترة ما بين القرن الحادي عشر والنصف الأوّل من القرن الثالث عشر الهجريّين، وكانت لهذا الانقسام تأثيرات وتداعيات حسّاسة وحرجة امتدّت بعض آثارها إلى ما هو أوسع من المجال الفقهيّ.

وأظهرت هذه النزعة ردّ فعلٍ في مقابل تطوّر الفكر العلميّ عند المسلمين الشيعة في مجال أصول الفقه، رافضة هذا المنحى، ومعارضة مسلكه العقليّ وموقفه تجاه العقل.

هذه النزعة وضعت الفكر الشيعيّ أمام امتحان صعب وخطير، وكادت أن ترتدّ به إلى الوراء، وتقلب عليه مساراته ومسلكيّاته الفكريّة والعلميّة، وتغيّر في نمط رؤيته إلى ذاته، ورؤيته إلى العالم.

وقد كشفت الطريقة التي جُوبِهَت بها هذه النزعة في داخل المجال الشيعيّ، عن مدى الوعي بخطورة هذه النزعة، خاصّة من جهة الموقف تجاه العقل والعقلانيّة، ولو تغلّبت هذه النزعة؛ لكان الفكر الشيعيّ اليوم في وضع آخر تماماً، لا يكاد يكون له أثر ولا تأثير في حركة العصر.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ظهور الاتّجاه الأخباريّ مثّل أعظم باعث على نهضة الفكر العلميّ الأصوليّ وتقدّمه عند الإماميّة، ولولا ظهور هذا الاتّجاه وما مثّله من تحدٍّ عنيف؛ ما وصل أصول الفقه والفكر العلميّ الأصوليّ إلى ما وصل إليه اليوم من تجدّد وازدهار.

ومن جانب آخر، فإنّ هذا التحدّي تركّز بصورة أساسيّة في ساحة العقل وأدلّته وحجّيّة الظواهر القرآنيّة، وفي هذه الساحة كانت المعركة الفكريّة العنيفة بين

الاتّجاهين الأصوليّ والأخباريّ، الأمر الذي اقتضى من الاتّجاه الأصوليّ أن يدخل هذه المعركة بسلاح العقل؛ انتصاراً به، وانتصاراً له.

وبهذا السلاح تغلّب الاتّجاه الأصوليّ على الاتّجاه الأخباريّ وتفوّق عليه، وكسب المعركة، واصطفّ إلى جانبه الجمهور الشيعيّ العامّ.

ومن هنا، فإنّ الاتّجاه الأخباريّ شكّل باعثاً قويّاً في الكشف عن الجوانب العقليّة والعقلانيّة في أصول الفقه، وفي تأصيلها وتقعيدها، والتوسّع فيها بالطريقة التي جعلت المنحى العقليّ والعقلانيّ يصبح من أبرز ملامح الفكر العلميّ الأصوليّ عند الإماميّة.

وتمكّن الفكر الإسلاميّ الشيعيّ، في هذا الاختبار، من التغلّب على النزعة الأخباريّة التي ظهرت في داخله، ومن الانتصار النهائيّ عليها، وتحويل وضعيّتها من التأثير في المركز إلى التأثير في الهامش. وهذا هو حالها اليوم في البيئات والمجتمعات التي ظهرت فيها.

وبخلاف هذا الوضع تماماً، ما حصل في المجال الإسلاميّ السنّيّ، الذي تغلّبت وتقدّمت في ساحته النزعة السلفيّة، وحافظت على قوّة تأثيراتها في ساحة المركز، وليس في ساحة الهامش. ولشدّة وضوح هذه الحالة فهي لا تحتاج إلى البرهنة عليها. ويكفي فيها الإشارة إلى التسابق الحاصل في نشر كتب الأشعريّ وكتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم[1].

وتصلح هذه المفارقة ما بين تغلّب الفكر الشيعيّ على النزعة الأخباريّة، وتغلّب النزعة السلفيّة في الفكر السنّيّ، لتفسير ما حدث ويحدث في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة من توتّرات ونزاعات وسجالات مذهبيّة.

(١) انظر: عبد الرازق، مصطفى: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلاميّة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينيّة، لا ت، ص٢٩٥.

خاتمة:

إنّ هذه الاختبارات الفكريّة والتاريخيّة الممتدّة ما بين القرن الهجريّ الثاني إلى القرن الثالث عشر، والانتصار فيها، يكشفان ـمن جهةـ عن تطوّر الحركة العقليّة في الفكر الشيعيّ، ويكشفان ـمن جهةٍ أخرىـ عن بقاء هذه الحركة وديمومتها، حيث ألهمت الفكر الشيعيّ ديناميّات التطوّر والتجديد الاجتهاديّ.